المحاضرة الثامنة: قضايا نقدية (الوحدة العضوية)

1. الوحدة العضوية:

تتّصل قضية الوحدة في العمل الأدبي، بالنقد القديم والحديث، وهي في أوجز تعريف لها: "ذلك الرباط الذي يضمّ التجربة والصور والانفعالات والموسيقى والألفاظ في وشاح خفيّ أثيريّ، وبهذه الوحدة يتكامل القصيد وتدبّ فيه الحياة"[i]، والوحدة من القضايا التي شاع الحديث عنها، لما لها من أثر في تماسك النص وتآلف أجزائه، بما يستدعي تحقق غاية المتعة واللذّة من طرف المتلقي أو عدم تحققهما، وكثيرا ما قدّم النقاد العرب القدماء ملاحظاتهم حول مدى ترابط النص الشعري وتكامل عناصره الجمالية من عدمها، وكانت الوحدة في القصيدة عندهم ترتبط باستقلالية معنى البيت الشعري، الذي يكون أجمل وأكمل إن هو اكتفى بمعناه، "ولذلك قال بعض النقاد: إنّ الشاعر إذا أتى بالمعنى الذي يريده في بيت واحد كان في ذلك أشعر منه إذا أتى بذلك المعنى في بيتين"[ii]، فمنتهى البلاغة عندهم أن يكون البيت الشعريّ مستوفٍ لفظه معناه، دون حشو أو تضمين منفِّرَين، يردُ مُوجزا، مستقِلّا ومركّزا، سهل الحفظ والاستحضار والاستشهاد.

يقول (المرزوقي ت421ه) في هذا الباب: "الشعر مبنيّ على أوزان مقدّرة، وحدود مقسّمة، وقوافٍ يُساق ما قبلها إليها مهيّأةٍ، وعلى أن يقوم كلّ بيتٍ بنفسه غير مُفتقرٍ إلى غيره إلّا ما يكون مضمّنا بأخيه، وهو عيبٌ فيه"[iii]، مؤكّدا على ضرورة احترام وحدة البيت واستقلاليته بمعناه في الشعر، ولئن لم يستوفِ البيت الواحد معناه وضمّنه بآخر متمّما له، عُدّ الأمر نقيصة وعيبا فيه.

أمّا الوحدة في النقد الحديث، فتنقسم إلى قسمين؛ أحدهما يرتبط بالبيت الواحد كما في النقد القديم، حيث يستقلّ كلّ بيت شعريّ بمعناه، أسوةً بالشعر التقليديّ، يقول (شوقي ضيف): "تألفت القصيدة الجاهلية من أبيات متجاورة متناثرة.. فكلّ بيت له حياته واستقلاله، وكلّ بيت وحدة قائمة بنفسها، وقلّما ظهرت صلة وثيقة بين بيت سابق ولاحق"[iv]، والقسم الثاني، يرتبط ببنية القصيدة ككُلّ، وتسمّى الوحدة العضويّة، ويُقصد بها "أن تكون القصيدة عملا فنيّا تامّا، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخلّ ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها، فالقصيدة الشعريّة كالجسم الحيّ، يقوم كلّ قسم منها مقام جهاز من أجهزته، ولا يغني عنه غيره في موضعه إلا كما تغني الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدّة"

وهذا على حدّ تعريف (العقاد)، الذي يعدّ من الأدباء النقّاد الأوائل الذين دعوا إلى ضرورة تطبيق مقياس الوحدة في الشعر، من خلال نقده لأشعار (أحمد شوقي) في كتاب الديوان.

أعاب (العقاد) على (شوقي) تفكك شعره، بسبب تقليده للشعراء القدماء في نظمهم، الذي يفتقر، برأيه، إلى الوحدة المعنوية، يقول "إنّ التفكك هو أن تكون القصيدة مجموعة مبدّدة من أبيات متفرّقة لا تؤلّف بينها وحدة غير وحدة الوزن والقافية، وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة، إذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافي المتشابهة أكثر من أن تحصى، فإذا اعتبرنا التشابه في الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية، جاز إذن أن ننقل البيت من قصيدة إلى مثلها، دون أن يخلّ ذلك بالمعنى أو الموضوع، وهو ما لا يجوز"[v] ، فوحدة القصيدة بنظره، لا تتأتّى من وحدة الأوزان والقوافي فحسب، بل ينبغي أن تكون كلّا متكاملا، متآلفا في أجزائه وصوره، منسجما في فكرته وموضوعه ولحنه، لو اختلّ جزء من ذلك النظام الفنّي، اختلّت القصيدة ككلّ في معناها ومبناها.

أمّا (خليل مطران) فقد قدّم لديوانه مدافعا عن الشعر العصريّ، الذي لم يستسغه بعض النقاد المحافظين، مؤكّدا على الوحدة العضوية للقصيدة، رافضا وحدة البيت، يقول: "نعم هذا شعر عصريّ، وفخره أنّه عصريّ.. هذا شعر ليس ناظمه بعبده، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده، يُقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الصريح، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد.. بل ينظر إلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها"

وكان (مطران) بمعية (عبد الرحمان شكري) من أشدّ المدافعين على الوحدة العضوية للقصيدة، متأثّران بالنقد الأوروبيّ الحديث، فعبد الرحمان شكري يرى أنّ "قيمة البيت في الصلة بين معناه وبين موضوع القصيدة، لأنّ البيت جزء مكمّل ولا يصحّ أن يكون البيت شاذّا خارجا عن مكانه من القصيدة، بعيدا عن موضوعها، وينبغي أن ننظر إلى القصيدة من حيث هي شيء فردٌ كاملٌ لا من حيث هي أبيات مستقلّة"[vi] وعلى الشاعر أن يعطي نصيبا من عنايته لوحدة القصيدة وتناغم أبياتها الشعرية، حتى تُقرأ في كليّتها وتُدرك الصلات المعنوية الخفيّة التي تربط بين أجزائها.

عموما، يمكن القول أنّ الوحدة في النقد الأدبي قضية أثارها النقد الحديث والقديم على السواء، والحديث عنها جرى متفاوتا من ناقد لآخر، كلٌّ حسب رؤيته وتصوّره وقيمه الفنيّة، وبها كانت تُقاس جودة النصوص الأدبية وتناسق أجزائها وارتباط عناصرها، غير أنّ توافر الوحدة في الشعر الغنائي يختلف باختلاف طبيعة الشعراء، فمنهم من يغلب عليه التركيز ومنهم من يغلب عليه الاستطراد، كما أنّ تجاربهم الشعورية تتباين فيما بينهم.

وعليه "فمطلب الوحدة لا يخضع لمقياس ثابت، ومن الخير أن نترك للشاعر حريته في التعبير عن عواطفه بترتيب ما يسبق منها إلى ذهنه، وما يتعاقب عليه من الأخيلة والخواطر"[vii]، وتبقى الوحدة جزء

مهمّ من التجربة الشعرية، إن صيغت هذه الأخيرة صياغة جيّدة جادت معها الوحدة، وإن كانت الصياغة اللفظية والمعنوية مفككة، ضاعت معها الوحدة.